

من صور الهزيمة في الشعر الأندلسي في القرن الخامس الهجري

عبيد بشير
جامعة سوريا

ملخص:

المقصود بالهزيمة في هذا المقال: هو تلك الزفرات والتأوهات التي ردها الشعراء تجاه القيود والحتميات، ولم ترفض مع ذلك مماشاة الأحداث، واكتفت بإعلان الاستسلام والانكسار. وانطلاقاً من هذا المفهوم سنتناول جانباً من جوانب الهزيمة مُمثلاً بفساد الحاكم في الأندلس الذي أضحى بدوره فاعلاً أساساً من فواعل هذه الهزيمة؛ جنم على صدور الجماعة الأندلسية التي دخلت عصراً جديداً يميزه التفكك والضعف مع نهاية القرن الرابع الهجري، ولم يجد كثير من الشعراء مخرجاً من ذلك سوى التذمر، ولا حملوا لواء غير الخضوع والخنوع مبتعدين بذلك عن روح التحدي والتصدي، والنداء بالتغيير.

The meaning of defeat in this article is those exhalations which were repeated by poets against and restrictions necessities then do not refuse walking with events surrounding to be satisfied with the declaration of the defeat. So, starting from this meaning we will take one aide from the defeat which is the decay of the ruler in the Andalus which was considered a main doer of the defeat doers that set on the chest of the andalusian group which entered a new age

characterized by its weakness at the end of the fourth century of the hegira, many poets didn't find a way out from that, except complaining and didn't take a flag except the submission and obedience for from the spirit of challenge and calling for change.

فساد المثال:

شاعت الأقدار أن تنفتت سلطة الملك / المثال ليتحمل المجتمع الأندلسي تبعاته، وتنطفئ مع فساد هذا المثال الأنوار التي ارتفعت بالجماعة الأندلسية، ويعمه الظلام، وقد تجاوزت الذوات الشاعرة التي امتزجت أصواتها بأصوات الجماعات، إذ "لم يكن ملوك الطوائف في سياستهم الداخلية إزاء شعوبهم أفضل موقفا ولا أكرم تصرفا؛ فقد كانوا طغاة قساة على رعيتهم يسومون الخسف، ويتقلون كواهلهم بالفروض والمغارم لملء خزائهم وتحقيق ترفهم وبذخهم، ولم يكن يردعهم في ذلك رادع لا من دين ولا من أخلاق"¹، وهو ما عمق حس الهزيمة الجماعية التي استشعرت عجزها عن ردع هذه الأمثلة الفاسدة، ووقفت عند الخنوع والخضوع، يقول ابن شهيد² يتحسر على الماضي أيام كانت السلطة في يد واحدة حفظت للناس أمنهم وأعراضهم:³

أيامَ كان الأمرُ فيها واحداً لأميرها وأمير من يتأمرُ
أيامَ كانت كفُّ كلِّ سلامةٍ تسمو إليهم بالسلامة وتبدرُ.

وقد جعل العمى بما يحمل من دلالات السواد والعتمة واليأس من الحاضر الفاجع الذي جعل الماضي بما حمل من أفراح ومباهج أضغاث أحلام تجسد معاني الوهن والسقوط، يقول:⁴

عمَّهتْ لها أحلامنا وكانها أضغاثُ حالمٍ
[...] فكأننا عميُّ نسا قُ على العمى في ظلِّ عاتم.

فالشاعر قد عبر عن الهزيمة الجماعية (أحلامنا- فكأننا- عمي- نساق)، وتبرز نا/ نحن حاملة دلالات الهزيمة، وتمتزج النزعة الذاتية بالنزعة العمومية ليكون صوت الشاعر هو صوت العامة من الشعب أو لسان أولئك المهزومين يعضدها بناء الفعل (نساق) إلى فاعل مجهول يتلاءم ودلالات (عمهت- عمي- عاتم)، فالجماعة تفر عزها وتؤكد استسلامها ورضوخها، وتكتفي بهما.

وحين صور بعض شعراء القرن الخامس الهجري فساد المثال وعجز الجماعة الأندلسية على استساغة السياسة القائمة على التناحر فيما بين الأمثلة وتتجاوزها إلى الاستجداء بالأعداء المتربصين بالجماعة الأندلسية المسلمة للانقباض عليها وإسقاطها بدفع الأموال الطائلة مقابل هذا الخضوع والذل، وهو ما أكده ابن حزم، يقول: "والله لو علموا أن في عبادة الصليبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصارى؛ فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم، يحملونهم أسارى إلى بلادهم، [...] وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعا، فأخلوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفا من سيوفه"⁵.

وينعى الشاعر أبو عبد الله الفازاني⁶ هزيمة الجماعة بفساد مثالها الذي تقرب إلى النصارى في ذلة ومسكنة، وقدم لها الجزية بعد أن كان يأخذها منها، يقول:⁷

الروم تضرب في البلاد وتغنم	والجور يأخذ ما بقى والمغرم
والمال يورد كله قشتالة	والجند تسقط والرعية تسلم
وذوو التعيين ليس فيهم مسلم	إلا معين في الفساد مسلم
أسفي على تلك البلاد وأهلها	الله يلطف بالجميع ويرحم.

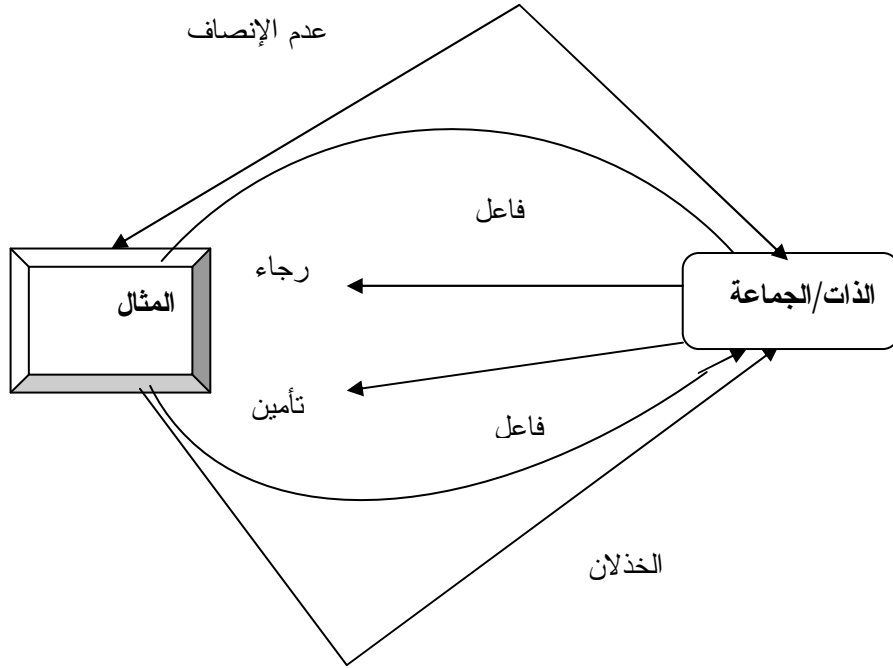
ويبرز الاهتمام بالمسقط للمثال الذي أخذ صدارة الكلام حين استولى على القوة واحتكرها، وسلبها المثال (المفسد):

الروم ← سالب / مُسقط ، الملك / المثل ← مسلوب / مُسقط.
ويحمل الأول دلالات النصر (تضرب في البلاد- تغنم) يقويه الجور
والمغنم، ويحمل الثاني / المثل دلالات انعدام الإسلام (ليس فيهم مسلم)،
الفساد. وتبرز عنهما هزيمة الجماعة المعبر عنها(الجند تسقط- الرعية
تسلم)، ويرتفع معها لسان حالها يردد مرارات الأسف (أسفي على تلك
البلاد وأهلها)، وهو ما يكتف معاني الانكسار.

وإذا كان الشاعر السميصر⁸ في تصويره لفساد المثل يبدو كما صوره
طاهر أحمد مكي صاحب موقف رافض حين رأى اختلال القيم وزهوة
الباطل وغلبة الصغار، وعجزه عن التغيير، فأدار ظهره لكل ما حوله،
"وجاء شعره رافضا بكل ما تعنيه الكلمة في العصر الحديث سخر مما
يعظم الناس، وهجا من يمدحون، واحتقر ما يكبرون، وجاء هجوه لهم
مفحشا ونقده قاسيا"⁹، فإن هذا الرأي - وإن دل على سعة اطلاع قائله
ومدى اهتمامه بهذا الشاعر الأندلسي- يظهر لنا تعميميا مطلقا؛ فالشاعر
يقول:¹⁰

رَجَوْنَاكُمْ فَمَا أَنْصَفْتُمُونَا وَأَمْنَاكُمْ فَخَذَلْتُمُونَا
سَنَصْبِرُ وَالزَّمَانُ لَهُ انْقِلَابٌ وَأَنْتُمْ بِالْإِشَارَةِ تَفْهَمُونَا.

فصوته المجهور إعلان بهزيمة الجماعة التي ينتمي إليها ويتجرع
معها كؤوس الانكسار، وإن ظهر رافضا كما ذهب إلى ذلك صاحب كتاب
(شعر السميصر الأندلسي صوت المعارضة)¹¹، فهو في الحقيقة منهزم
ذاتيا ومنهزم جماعيا؛ إذ تحول الرجاء إلى عدم إنصاف، والتأمين إلى
خذلان، فالبدليات تشع بالأمل لتنتهي بتأكيد الخيبات، ورسم صورة
الهزيمة بقتامتها، ويبقى للذات / الجماعة: الصبر، وإن كان في حقيقته
صير استسلام وخضوع يندم معهما الرفض والتصدي والمواجهة،
والشكل الآتي يوضح ذلك:



وتظهر فاعلية الجماعة: رجونا وأمنًا/ نحن، تهزمها فاعلية المثال: أنصفتم ، خذلتكم / أنتم. وينتج عن الفاعلية الثانية فاعلية صبر الجماعة (سنصبر) لتجتمع للجماعة الأزمنة الثلاثة: ماضٍ مشرق ← حاضر مهزوم ← مستقبل يعمق الهزيمة. ويؤكد ذلك إسناد فاعلية الرفض والتغيير والمواجهة إلى الزمان (والزمان له انقلاب)، وتختفي الجماعة المهزومة وراءه تترقبه، وتتطلع إليه دون مبادرة أو سعي.

ويعلن أبو الحسن بن الجدي¹² هزيمة الجماعة وهو يقر سقوط المثال الذي سلم مقاليد الوزارة إلى أيادي غير أمينة، بل تعادي الإسلام والمسلمين، وعد هذا الصنيع علامة من علامات اقتراب الساعة، يقول:¹³

وقامت دولة الأندال فينا وصار الحكم فينا للعلوج
فقل للأعور الدجال: هذا أو أنك إن عزمت على الخروج

والشاعر هنا ظهر يائسا قد تملكه الذعر، إذ الواقعة كبيرة ولا مجال لإنكارها؛ مفصحا بعبارات مباشرة وصريحة عن التحول الخطير الذي شهدته الأمة بين عشية وضحاها، أورثها فاجعا كبيرا (تحكمت اليهود- تاهت بالبغال والسروج- قامت دولة الأندال- صار الحكم فينا للعلوج)، مقرا بالهزيمة النهائية من طرف اليهود، فقد أن الأوان- إنن- للساعة أن تقوم؛ لنتضاعف الهزيمة وتتدثر بغطاء الجماعة المعبر عنها بـ النا(فيينا) ضمير الجماعة المتكلمين على عرف النحويين مسندة الأفعال إلى فاعليها (تحكمت- تاهت- قامت- صار الحكم)، ليكون مصير الجماعة هو مصير المتحكم فيهم؛ فتتضاعف هزيمتهم ويقفون بين رحي حكام فقدوا حس المسؤولية، وسندان اليهود أعداؤهم الأبديين.

وفي صورة أخرى من صور الهزيمة التي سلطت على الجماعة نتيجة فساد المثال الذي آثر بعض الشعراء التوجه إليه بالشكوى، وأخذوا يشيرون إلى المنهم بعينه دون غيره، أملين أن يرفع عنهم هذا الإصر، وهو ما عبر عنه الشاعر أبو إسحاق الإلبيري¹⁴ لما عاب على باديس¹⁵ بن حبوس حاكم غرناطة اعتماده على اليهود في تسيير شؤون الدولة، قاصدا بذلك رأس الفتنة الوزير يوسف بن النخريلة¹⁶ محرضا قومه في صنهاجة على تغيير هذا المنكر بعد أن ارتفعت الأصوات من عرب وبربر بالشكوى¹⁷، فقال:¹⁸

ألا قل لصنهاجة أجمعين بدور الندى وأسد العرين

لَقَدْ زَلَّ سَيِّدُكُمْ زَلَّةً تَقَرُّ بِهَا أَعْيُنُ الشَّامَتَيْنِ
تَخَيَّرَ كَاتِبُهُ كَافِرًا وَكَلَّ شَاءَ كَانَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ
فَعَزَّ الْيَهُودُ بِهِ وَانْتَحَوْا وَتَاهُوا وَكَانُوا مِنَ الْأُرْدَلِينَ
وَنَالُوا مِنْهُمْ وَجَازُوا الْمَدَى فَحَانَ الْهَلَاكُ وَمَا يَشْعُرُونَ
فَكَمَ مُسْلِمٍ فَاضِلٍ قَانِتٍ لِأُرْدَلٍ قَرِدٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
وَمَا كَانَ ذَلِكَ مِنْ سَعِيهِمْ وَلَكِنَّ مِنْنا يَقُومُ الْمُعِينُ.

إن المتلقي أوالقارئ الذي تتوجه إليه رسالة الإلبيري هنا هو "كل القوى التي يتكون منها المجتمع الغرناطي، بربر صنهاجة، والأمير وهو منهم، ورئيسهم كقبيلة في الوقت نفسه، وجنود الجيش وهم من بربر إفريقية، ثم عامة المسلمين من بقية الأجناس الأخرى"¹⁹، وهو ما اهتمت به المناهج النقدية الحديثة التي انصرفت إلى التركيز على لحظة المتلقي، ودور القراءة في مقارنة النص أو تشكيل دلالاته، والبحث في السياق الاجتماعي الذي تم فيه هذا التلقي²⁰، ولم يتسن للشاعر سوى الإفصاح عن أسباب الهزيمة؛ مبرزا المكانة التي أصبح اليهود يتمتعون بها بعد أن كانوا أدلة، إلا أنه - ربما لحكمة منه- لم يركز على الخطأ الذي ارتكبه الحاكم في التمكين لهذا المجرم في الهرم السياسي، وما قام به هذا الأخير من إعلاء شأن بني جلدته؛ مع اكتفائه بالتنبيه إليه فقط، وركز بدل ذلك على نتائج هذه (الزلة)؛ مما أورث الذل والهوان للعامة.

ثم يتجه الشاعر نحو تنبيه الحاكم إلى خطورة صنيعه، والآثار التي ترتبت عنه، يقول: ²¹

أَبَادِيسُ أَنْتَ امْرُؤٌ حَانِقٌ تُصِيبُ بِظَنِّكَ نَفْسَ الْيَقِينِ
[...] وَكَيْفَ تُحِبُّ فِرَاحَ الزَّيْنِ وَهُمْ بَغْضُوكَ إِلَى الْعَالَمِينَ
وَكَيفَ يَتِمُّ لَكَ الْمُرْتَقَى إِذَا كُنْتَ تَبْنِي وَهُمْ يَهْدَمُونَ
وَكَيفَ اسْتَمْتَمْتَ إِلَى فَاسِقٍ وَقَارِنْتَهُ وَهُوَ بَيْسَ الْقَرِينِ
وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِي وَحْيِهِ يُحَذِّرُ مِنْ صُحْبَةِ الْفَاسِقِينَ

فَلَا تَتَّخِذْ مِنْهُمْ خَادِمًا وَذَرِّهُمْ إِلَى لَعْنَةِ اللَّاعِنِينَ
فَقَدْ ضَجَّتِ الْأَرْضُ مِنْ فِسْقِهِمْ وَكَادَتْ تَمِيدُ بِنَا أَجْمَعِينَ
تَأْمَلْ بَعَيْنِيكَ أَقْطَارَهَا تَجِدُهُمْ كِلَابًا بِهَا خَاسِئِينَ.

فإحساس الشاعر بالمأساة وإدراكه للهزيمة التي نالت منه ومن الغرناطيين كافة على يد هذه الشرذمة من اليهود؛ جعله يتوجه إلى الأمير ينبهه ويعاتبه عن قرب وكأنه يقف أمامه مباشرة، ويخاطبه باسمه (أباديس) كي ينقل إليه الصورة الحقيقية للواقع الغرناطي المتردي من سياسة هؤلاء اليهود في المعاملة؛ فهو يعجب من أمر هذا الأمير الحاذق الذكي الذي استند إلى (فراخ الزنا) في شئون حكمه، وأوكل أمر البلاد والعباد - في ثقة تامة - إلى زعيمهم الفاسق الخائن للأمانة (استتمت إلى فاسق)، يذكره بتحذير الله تعالى من اتخاذ مثل هؤلاء أولياء من دون المؤمنين (أنزل الله في وحيه يحذر من صحبة الفاسقين)، ويطالبه بإبعادهم ونبذهم، وتطهير البلاد من رجسهم؛ فليس في الخلق أنبذ منهم، (فقد ضجت الأرض من فسقهم - تجدهم كلابا بها خاسئين).

ولم يتوقف الشاعر عن التعبير عن الهزيمة من خلال الفضح الصريح لأعمال اليهود عند هذا الحد، بل راح يعدد امتيازاتهم الكبيرة في مقابل القهر الذي يكابده المجتمع على أيديهم، قال: ²²

وَقَدْ قَسَمُوا وَأَعْمَالَهَا فَمِنْهُمْ بَكْلٌ مَكَانَ لَعِينِ
وَهُمْ يَقْبِضُونَ جِبَايَاتَهَا وَهُمْ يَخْضَمُونَ وَهُمْ يَقْضَمُونَ
وَهُمْ يَلْبِسُونَ رَفِيعَ الْكُسا وَأَنْتُمْ لِأَوْضَعِهَا لِابِسون
وَهُمْ أَمْنَاكُمْ عَلَى سِرِّكُمْ وَكَيْفَ يَكُونُ خَوْنٌ أَمِينِ
وَيَأْكُلُ غَيْرُهُمْ دِرْهَمًا فَيُقْصَى وَيَدْنُونَ إِذْ يَأْكُلُونَ
[...] وَهُمْ يَدْبَحُونَ بِأَسْوَاقِهَا وَأَنْتُمْ لِأَطْرَافِهَا أَكْلُونَ.

وتتضح الهزيمة الجماعية من خلال كثرة الأفعال التي أسندها الشاعر لليهود (هم)، وفي المقابل يحصل المسلمون على أقلها عدداً وشأناً (أنتم). فالهزيمة إذن لم تعد سياسية وحسب، وإنما تعدتها إلى الاقتصاد لأن زمام الأمور من أعمال وجبايات، كلها تجري على أيدي اليهود الذين تمكنوا بفضل هذا الامتياز من ممارسة سياسة القهر والإذلال، فما كان على الشاعر إلا أن يقوم بتحريض العامة من الغرناطين يستفزههم ويستثيرهم، ويبين لهم كيف أن هؤلاء المجرمين استأثروا بحكم غرناطة واقتسموا خيراتها، وأنقلوا كاهل المسلمين بالجباية؛ مقابلاً بين ما اكتسبوه من ترف وثراء، وبين حياة البؤس والضياع التي أصبح يعيشها أهل غرناطة لتستمر هم (اليهود) في قهر أنتم (الجماعة المسلمة)؛ إذ يتوجه الشاعر إلى التحريض على ابن النغريلة وحاشيته لإزاحتهم من مناصبهم والتخلص منهم جميعاً، قال: ²³

وَرَخَّم قَرْدُهُمْ دَارَهُ وَأَجْرَى إِلَيْهَا نَمِيرَ الْعَيْونِ
فَصَارَتْ حَوَائِجُنَا عِنْدَهُ وَتَحَنُّ عَلَى بَابِهِ قَائِمُونَ
وَيَضْحَكُ مِنَّا وَمِنْ دِينِنَا فَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاجِعُونَ
[...] وكيف تكون لهم ذمة ونحن خمول وهم ظاهرون

لتكون الهزيمة السياسية والاجتماعية التي جنمت على صدور الغرناطين من وراء التجبر الذي يمارسه اليهود يكتفها فعل الهازم - اليهودي وحاشيته (وَيَضْحَكُ مِنَّا وَمِنْ دِينِنَا) وما حمل من دلالات السخرية والاستهزاء، ووقوعه على الجماعة المسلمة (منا - ديننا)، ولا يكتفي هذا الفاعل / الهازم بذلك، وإنما يتناول على كتاب الله زاعماً أن هناك تناقضا في القرآن الكريم ²⁴، حتى انبرى له ابن حزم الأندلسي، فألف رسالة يرد فيها عليه ويدحض مزاعمه ²⁵؛ لتتعاضد أصوات الشعر مع أصوات النثر معبرة عن صوت الجماعة.

ثم يعود الشاعر إلى إلقاء اللوم على الأمير، ويحمّله مغبة تركهم تحت رحمة الذل، مذكرا إياه بمسؤوليته أمام الله عز وجل (الرقيب)، مما دفع به إلى القيام بـ"حركة لإعادة تنظيم النّحن، يمضي فيها بخطوات ينظمها إطاره الشعري"²⁶، ومحاولة لتخطي الانكسار بالدعوة إلى رفع هذا الإصر، يقول:²⁷

وَتَحْنُ الْأَذْلَةُ مِنْ بَيْنِهِمْ كَانَا أَسَانَا وَهُمْ مُحْسِنُونَ
فَلَا تَرْضَ فِينَا بِأَفْعَالِهِمْ فَأَنْتَ رَهِينٌ بِمَا يَفْعَلُونَ
وَرَاقِبُ إِلَهِكَ فِي حَزْبِهِ فَحَزْبُ الْإِلَهِ هُمُ الْغَالِبُونَ.²⁸

وفي دعوته تتجلى الهزيمة المستترة في الدلالات العميقة للأبيات: نحن = (الأذلة - أسانا - رهين)، مرسخة الهزيمة، مستجابة نصر الله الذي يحيل انكسارها غلبة (فحزب الله هم الغالبون)، وهو ما يجعل الجماعة (نحن) المغلوبين في واقعهم يأملون تغييره إلى واقع يحمل الغلبة لهم. وعلى الرغم من أن هذه الرسالة التحريضية موجهة إلى من تلق ينتمي إلى شريحة اجتماعية "حظها من العربية متواضع، وكل ما تستطيعه غالبا أن تلتقط معنى الخطاب وفكرته العامة، وتدرك غايته إجمالاً دون إدراك معاني دواله تفصيلاً فإنّ الخطاب قد حقق وجوده"²⁹، ولم يتأخر رد الفعل في أن يؤتي ثماره، ليكون الدافع النفسي هو الذي جعل الشاعر (المرسل) يستهل خطابه بالتحدث إلى صنهاجة لأن "البربر حانقون على اليهود فعلاً، وبقليل من المديح لهم، وبسط ما كان عليه اليهود وما انتهى إليه حالهم، سوف يصبحون من الثائرين"³⁰، فكانت ردة الفعل قوية ومباشرة، وفي هذا يقول المقري: "فثارت إذ ذاك صنهاجة على اليهود وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وفيهم الوزير المذكور [وعادة أهل الأندلس أن الوزير هو الكاتب]، فأراح الله البلاد والعباد"³¹.

وتشير المصادر أنه هلك في هذه الثورة آلاف من اليهود،³² ويصفها ابن بسام بأنها "ملحمة [هزيمة] من ملاحم بني إسرائيل، وطال عهدهم بمتلها".³³

وقد كانت هذه القصيدة السياسية سبب شهرة الشاعر أبي إسحاق الإيبيري عند غير المسلمين؛ نظرا إلى الدور الذي لعبته في تأليب مسلمي غرناطة ضد اليهود، والهزيمة النكراء التي ألحقت بهم؛ يقول غرسيه غومس: "والحق أن القصيدة تستحق ما حظيت به من شهرة، ولا نعرف إلا في القليل النادر أن أبياتا من الشعر لعبت دورا سياسيا مباشرا في التاريخ السياسي لأمة من الأمم؛ فكهربت العزائم، ودفعت بها في سرعة خاطفة إلى إشعال الحرائق، وشحذت السيوف للقتل كالدور الذي لعبته هذه القصيدة".³⁴

إن وعي هذه الأصوات بالظروف المأساوية التي كانت الأمة تمر بها بعد انهيار الدولة العامرية جعلها تستشف النهاية المحتومة للطبقة السياسية الحاكمة؛ ليستمر المظهر الآخر من الهزيمة الذي تمثله هذه الطبقة عندما انقلب عليها سحرها، وهو ما عبر عنه ابن الجدي، قال:³⁵

أرى الملوكة أصابتهم بأندلس دوائر السوء لا تبقي ولا تدر
قد كنت أنظرها والشمس طالعة أو صح للقوم في أمثالها النظر
ناموا وأسرى لهم تحت الدجى قدر هوى بأنجمهم حسفا وما شعروا
وكيف يشعروا من في كفه قدح يحدو به مهبها: الناي والوتر
[...] ردوا موارد قد أوردتم حنقا بها الأنام ولكن ما لكم صدر
كأنني بكم قد صرتم سمرا وما لكم في الورى عين ولا أثر
أماكم قبل موت سوء فعلكم وكيف بالذكر أن لم تحسن السير.

لقد كانت نظرة الشاعر إلى هؤلاء الملوك/ الأمثلة - وقد دارت عليهم دائرة البوار - نظرة تشفٍ وازدراء، ضمنها في صور بليغة للانكسار المفجع الذي أصابهم، والذي سيؤدي حتما إلى أفولهم، وهو ينظر إلى ذلك

بأم عينيه (أرى الملوك أصابتهم بأندلس دوائر السوء لا تبقني ولا تذر)، ولم يكن ذلك بالصدفة، بل كان نتيجة الغفلة والتفريط تارة، والانغماس في اللهو والمجون تارة أخرى، ولم يحصدوا إذن إلا ما زرعوها. وإن اشتركت الجماعة مع المثال في الحصاد والسقوط، وامتزج الازدراء بالتفجع واختلط السرور بآهات الألم، يقول السميصر:³⁶

ولمّا لم تَنَلْ منهم سرُورا رأينا فيهم كلَّ السرُورِ.

تتحول الهزيمة الجماعية إلى أصوات تصدح بأنغام المسرة لانكسار المثال/ الفاسد، ويتبادل المهزوم الدور مع الهازم، ويصدق فيهما المثل: شر البلية ما يضحك.

هذه نماذج من أصوات ترددت أصدائها - غالبا - ضمن مقطعات عبرت بصدق عن الهزيمة الجماعية، فأظهرت بذلك جانبا معتما من حياة الأندلسيين في القرن الخامس الهجري خاصة في مرحلة ملوك الطوائف التي قامت على سياسة التنازع والتناحر فيما بينها، والتي كان لها الأثر الكبير في معاناة الأمة و مآسيها.

وتكون هزيمة الحكام/ الأمثلة تجسيدا لهزيمة (النحن) الجماعية، وإن لم يصرح بها في بعض النصوص السالفة الذكر ليصدق عليها: إن الإنسان إذا لم يفصح يكون أكثر إفصاحا.

الهوامش والإحالات:

- 1 - محمد عبد الله عنان. دولة الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، الأعمال الفكرية، سلسلة الأعمال الفكرية، مكتبة الأسرة، 2003، ص419.
- 2 - هو أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد بن عيسى بن شهيد بن عيسى بن شهيد بن الوضاح الأندلسي القرطبي. ولد في القسم الشرقي من مدينة قرطبة في حي مينة المغيرة، في الدار المعروفة بدار ابن النعمان سنة 382هـ. نشأ

- نشأة مترفة في قصر أبيه الوزير عبد الملك، وشهد عز أبيه في ظل دولة العامريين. أصيب أبو عامر بن شهيد في أواخر أيامه بمرض الفالج وظل يعاني منه حتى وافته المنية سنة 425هـ، ولم يتجاوز الثالثة والأربعين من عمره. انظر: ابن خلكان. وفيات الأعيان 1: 116، ابن الأثير. الحلة السيرة 1: 238.
- 3 - ابن شهيد. ديوانه ورسائله. تح: محي الدين ديب. المكتبة العصرية. صيدا-بيروت. ط1. 1997. ص 77.
- 4 - المصدر نفسه. ص 126.
- 5 - ابن حزم الأندلسي. الرد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى. تح: إحسان عباس. مكتبة العروبة القاهرة. 1960. ص 177.
- 6 - أبو عبد الله محمد الفازاري قال فيه المقرئ: "وهو كما قال فيه بعضهم: صاحب القلم الأعلى، والقدر المعلى، أبرع من ألف وصنف، وأبدع من قرط وشفن". المقرئ (أبو عبد الله أحمد بن محمد التلمساني). نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب. تح: يوسف الشيخ محمد البقاعي. دار الفكر. بيروت-لبنان. ط1. 1998. 5: 355، عبد الله محمد الزياد. رثاء المدن في الشعر الأندلسي. منشورات جامعة قار يونس. بنغازي-ليبيا. ط1. 1990. ص 27.
- 7 - المقرئ. المصدر نفسه. ص ن.
- 8 - هو خلف بن فرج الإلبيري، أبو القاسم، الملقب بالسميسر، من أعلام الشعراء في عصر ملوك الطوائف، اشتهر بالهجاء، له كتاب لقبه: شفاء الأمراض في أخذ الأعراض، مجهول المولد والنشأة. انظر ترجمته: ابن بسام الشنتريني. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. تح: إحسان عباس. الدار العربية للكتاب. ليبيا-تونس. ط1. 1978. 2/1: 882، العماد الأصفهاني الكاتب. خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء المغرب والأندلس. تح: آذرتاش أذرنوش. نقحه وزاد عليه: محمد المرزوقي. محمد العروسي. الجيلاني بن الحاج يحيى. الدار التونسية للنشر. تونس. 1972. 2: 206.
- 9 - الطاهر أحمد مكي. دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة. دار المعارف. القاهرة. ط1. 1980. ص 74.
- 10 - ابن بسام. الذخيرة. 2/1: 855.
- 11 - حافظ المغربي. شعر السمسر الأندلسي، صوت المعارضة (الرؤية والأداة). دار المناهل للطباعة والنشر. بيروت. ط1. 2006. ص 113.
- 12 - هو أبو الحسن يوسف بن محمد بن الجدد، قال فيه ابن بسام "وأبو الحسن هذا من أسنى نجوم سعدهم، وأسمى هضاب مجدهم، ولولا ماخلا به من معاقرة العقار [...] لمأ ذكره البلاد، وطبق نظمه ونثره الهضاب والوهاد، وقد استكتبه ذو الوزارتين أبو بكر بن عمار أيام حربه بمرسية". ابن بسام. الذخيرة. 2/2: 556، 562.
- 13 - نفسه. ص 562.
- 14 - هو الشاعر الزاهد أبو إسحاق إبراهيم بن سعيد التجيبي الإلبيري، فقيه ورع وشاعر أصله من أهل حصن العقاب، اشتهر بغرناطة وأنكر على ملكها استوزاره ابن

- نَعزِيَّة اليهودي فنفي إلى البيرة، وقال في ذلك شعراً فتارت صنهاجة على اليهودي وقتلوه. شعره كله في الحكم والمواعظ، توفي في أواخر سنة 459هـ. انظر ترجمته: ابن سعيد. المغرب في حلى المغرب. تح: شوقي ضيف. دار المعارف. القاهرة. ط4. (دت). 2: 132، المقري. نفح الطيب. 5: 190
- 15 - هو باديس بن حبوس بن ماكسن بن زيري بن مناد الصنهاجي، تولى حكم غرناطة بعد وفاة أبيه حبوس سنة 428هـ، أقوى ملوك البربر في جنوبي الأندلس وأعظمهم شأنًا في تلك الفترة. توفي في شوال من سنة 465هـ بعد حكم دام سبعة وثلاثين سنة. انظر: محمد عبد الله عنان. دولة الطوائف. ص 129-138.
- 16 - هو يوسف بن اسماعيل بن النغيلة، مكن له أبوه في دولة بني زيري: حبوس ثم باديس وكان ذكيا داهية، وكانت الجباية التي يقدمها المتصرفون اليهود تسكت باديس وتسره، غير أن التحريض عليه من قبل العلماء والمصلحين جعل العامة تقتله وتفتك بقومه، وكان ذلك سنة 459هـ، انظر: ابن عذارى. البيان المغرب. 3: 264، هنري بيرس. الشعر الأندلسي في عصر الطوائف. تر: الطاهر أحمد مكي. دار المعارف. القاهرة. ط1. 1988. ص244.
- 17 - انظر: محمد حسن قجة. محطات أندلسية دراسات في الأدب والتاريخ والفن. الدار السعودية للنشر والتوزيع. ط1. 1985. ص157، 158.
- 18 - أبو إسحاق الإلبيري. الديوان. تح: محمد رضوان الداية. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط1. 1976. ص 96، 97.
- 19 - الطاهر أحمد مكي. دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة. ص 79.
- 20- انظر: بشرى موسى صالح. نظرية التلقي أصول وتطبيقات. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. ط1. 2001. ص32-34.
- 21 - أبو إسحاق الإلبيري. الديوان. ص 97، 98.
- 22 - المصدر نفسه. ص 98، 99.
- 23 - نفسه. ص 99، 100.
- 24- انظر: فوزي سعد عيسى. الهجاء في الأدب الأندلسي. دار المعارف. القاهرة. (دط، دت). ص 90، 91.
- 25 - للمزيد من الاطلاع انظر: ابن حزم الأندلسي. الرد على ابن النغيلة اليهودي ورسائل أخرى. ص 46 - 48.
- 26 - مصطفى سويف. الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة. دار المعارف. القاهرة. ط4. ص 338.
- 27 - أبو إسحاق الإلبيري. الديوان. ص 100.
- 28 - يشير إلى الآية الكريمة: "وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ". المائدة. 56.

-
- 29 - أشرف محمود نجا. في الأدب الأندلسي، بحوث في نقد الخطاب الإبداعي. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر. ط1. 2007. ص80.
- 30 - الطاهر أحمد مكي. دراسات أندلسية في الأدب و التاريخ والفلسفة. ص 79.
- 31 - المقري. نفح الطيب. 5: 235.
- 32 - انظر: ابن الخطيب. أعمال الأعلام أو صفة جزيرة الأندلس. تح: ليفي بروفنسال. دار المكشوف. بيروت- لبنان. ط2. 1956. ص 233، ابن عذارى. البيان المغرب. 3: 276، 275.
- 33 - ابن بسام. الذخيرة. 1/ 2: 769.
- 34 - غرسيه غومس. مع شعراء الأندلس والمنتبي. ص 97.
- 35 - ابن الخطيب. أعمال الأعلام. ص 242.
- 36 - ابن بسام. الذخيرة. 2/1: 885.

من صور الهزيمة في الشعر الأندلسي في القرن الخامس الهجري قراءات
